مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد../العـدد:.. (2021)، ص ..- ..

الفكر السياسي عند كونفوشيوس

Confucius 's political thought

د. رياض خوضر

جامعة محمد بوضياف المسيلة

Riadkhouder 21@gmail .com

تاريخ الاستلام: 2021/05/08 تاريخ القبول: ../../2021 تاريخ النشر: ../../2021

ملخص :

لم تقتصر فلسفة كونفوشيوس على الجانب الأخلاقي فقط ،بل تعدتها إلى الجانب السياسي و قد قامت الفلسفة عنده على مجموعة من المبادئ و التعاليم كان الهدف منها إصلاح الفرد و المجتمع ،فقد اهتم كونفوشيوس أولا بالحكم و اعتبر أن العلاقة بين الابن و الأب هي الأصل لعلاقة الإمبراطور بالمحكومين ، فالحكم عنده هبة من السماء لكن هذه الهبة لا تكون إلا لذوي الأخلاق الفاضلة ، كما وضع كونفوشيوس مجموعة من الصفات تجعل من الحاكم حاكما صالحا نذكر منها أن يتحلى بالأخلاق و أن يحترم الأفراد و أن يعاملهم بالحسنى و ينهض بهم و بدولتهم و أن يحقق الرفاهية لهم . كما أكد أيضا على أن ثقة الرعية بالحاكم هي أساس الحكم كما وضع طريق للحاكم لكسب ثقة الرعية من خلال التحلي بالفضيلة والأخلاق الحسنة .

و لقد قسم كونفوشيوس الحكومات إلى صنفين حكومة صالحة تكفل السعادة للشعب، أما الحكومة الفاسدة فهي فاسدة بفساد الحكم و ذلك لسوء نية الحاكم و قصور مؤهلاته السياسية ، كما اعتبر كونفوشيوس أن الشعب ركيزة أساسية لقيام الدولة إذ يعتبره السيد الفعلي للسلطة السياسية و آخر ما تطرق إليه كونفوشيوس هو الاستغلال العادل للثروات داخل المجتمع و احترام حقوق الملكية و حمايتها .

إن هذه التعاليم السياسية هي في الحقيقة تنظير سياسي كفيل ببناء مجتمع قوي و متماسك و قد كان لهذه الأفكار تأثيرا كبيرا على العديد من الحضارات و المفكرين و ساهمت في تطور العديد من المجتمعات .

الكلمات المفتاحية :الحاكم، الرعية، الحكومة الصالحة، الحكومة الفاسدة.

Abstract:

Confucius philosophy was not limited to the ethical side only ,but also brought it back to the political side .philosophy for him was based on set of principales aimed at reforming the individual and society .Adopting morals and treating people well ,devaloping society and improving the lives of individuals.conficius divide the government into a righteos and corrupt government .the first is the one that acheves hapiness for member of society .

The second is related to the corruption of the system of government ,as confucius considered the people a basic pillar in building society and he is the actual master of political power . confucius touched on the fair exploitation of wealth in society and the respect and protection of property rights .

Keywords: the ruler ; the parish ; good government ; corrupt government.

1.مقدمة :

لم تقتصر فلسفة كونفوشيوس الإنسانية على الجانب الأخلاقي وحده ،بل قدم فكرا سياسيا جديرا بالاعتناء والإشادة .إذ على الرغم من انه لم يصلنا أي بيان جامع عن فلسفته السياسية ،إلا أنه يمكن من خلال ما توافر لدينا من معلومات ، تمكننا من بناء معالم واضحة لها ، فقد كان يؤمن بأن الأخلاق القويمة ،هي المبدأ الأساسي لأي نظام سياسي مستقر، إذ لا يستطيع أي حاكم أن يقيم نظاما اجتماعيا كاملا ، إلا إذا عمل على الارتقاء بأخلاق الأفراد . (مصطفى النشادر، 1997، ص84)

فليست السياسة بمنفصلة عن الأخلاق ، ومن فضل الأخلاق عن السياسة ،فهو لم يفهم الغاية من السياسة ،ولا الغاية من الأخلاق حيث أن الغاية السامية من السياسة هي إصلاح الأخلاق ،وقد يكون من واجب الدولة أن تعني بتوفير الخبز للعامة ،وأن تعني بالقيام على الميزانية ، وتنظيم دخلها وخرجها ، لكن تبقى الغاية السامية هي إصلاح أخلاق الناس وتهذيب الرعية ، حيث يقول كما ورد عن أبو زهرة :" إني في الفصل بين المتخاصمين كغيري من الناس،ولكن السياسة الحكيمة ، أن تهذب الرعية حتى لا تكون متخاصمة ".(محمد أبو زهرة، 1991، ص84) ومنه ما هي المبادئ الأساسية، التي تقوم عليها الفلسفة السياسية عند كونفوشيوس ؟

2. الحاكم :

لقد اعتبر كونفوشيوس العلاقة بين الأب والابن ، هي العلاقة التي يجب أن تكون الأصل ، للعلاقة بين الإمبراطور والكائن الأعلى من ناحية ،وبين الإمبراطور وشعبه من ناحية أخرى ، لذلك كان الإمبراطور في مركز الابن للكائن الأعلى [الإمبراطور ابن السماء]، ولكنه في الوقت ذاته كان في مركز الأب بالنسبة إلى شعبه . (رالف لينتون، 1961، ص253) وبالتالي فالحكم ليس إلا توكيلا أو تفويضا من السماء للحاكم . لكن في نظر كونفوشيوس ، أن السماء لا تهب الحكم إلا لذوي الأخلاق الفاضلة . (الشهرستاني، 1968، ص25)

فيا ترى ما هي أخلاق وصفات الحاكم عند كونفوشيوس ؟ **2.**

1.أخلاق الحاكم :

إن انتشار الأخلاق الفاضلة ، و التي هي عماد الحكم الصالح ، تشترط في أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة . و للحاكم التزامات تسع هي (نقلا عن : Karl jaspers)

1- أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق الأفراد العاديين .

2- أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه . 3- أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى ، وأن يقوم بالتزاماته إزائهم كاملة . 4- أن يجل وزراء ولايته أو إمبراطورتيه. 5- أن يعامل موظفي دولته بالحسنى .6-أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصي ، وأن يجعل من نفسه أب الشعب . 7- أن يعمل على تشجيع الحرف و الصناعات والفنون ، والنهوض بها . 8- أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين في دولته.9- أن يهتم برفاهية أمراء الإمبراطورية(حسن شحاتة سعفان، دت، ص786).

وفي وصف الأمير الصالح يقول كما ورد عن حسن شحاتة سعفان : "إن الأمير النبيل العظيم ، يتسم بكل معاني العدل في جميع تصرفاته ، فروح الحكمة تسيطر على أفراد شعبه، كبيرهم وصغيرهم ، أشرافهم وسقاتهم ، وعلى ذلك لن تتردد السماء التي تتوج الأسياد ، في أن تخلع عليه من ألوان الشرف ما لا يحصى ، إذ أن السماء تراقب و تلاحظ كل شيء قد أعطته تفويضا ، لكي يجلس على عرشها (على الأرض) .(عبد الجليل شلبي، 1991، ص85)

لهذا عندما سئل كونفوشيوس : أليست التعاليم الأميرية تجعل الشجاعة فوق كل شيء؟ فرد الحكيم كما جاء عن ع. الجليل شلبي : " إن الحاكم الفاضل من يضع العدالة أمام كل شيء ، فمن لديه شجاعة بدون عدل، ما هو إلا تهديد للدولة ونذير خراب لها . والرجل من عامة الناس ، الذي لديه شجاعة بدون عدالة ، ليس أكثر من قاطع طريق .(ول ديورانت، 1996، ص84) لذلك اعتبر كونفوشيوس ، أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحكم ، هو نفس المبدأ الذي تقوم عليه

الأخلاق ، ألا وهو الإخلاص .ولهذا كانت الأداة الأولى للحكم هي القدوة الحسنة .(ول ديورانت، 1996، ص61)

ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى في السلوك الحسن ، حتى يحدوا الناس حدوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه ، فالعامة يسيرون على أخلاق حكامهم ، فان كان حكامهم صالحين صلحوا ، وان كانوا فاسدين فسدوا.

وبذلك جعل أساس إصلاح أخلاق الناس ، أن يكونوا حكامهم ذوي أخلاق حسنة فهو يقول في قوة وإيمان كما ورد عن أبو زهرة : " إن الحاكم إذا شغف بالآداب الفاضلة ، لا يجترئ أحد من رعيته على إهانة غيره . وإذا شغف بالصدق لا يجترئ أحد على الكذب . ومن هذه الحالة أقبل عليه الناس حاملين أولادهم على ظهورهم"(حسن شحاتة سعفان،دت، ص786).

وفي موضع أخر يقول نقلا عن ول ديورانت :" فليرأسهم في وقار يحترمونه ، وليكن عطوفا عليهم رحيما بهم يخلصون له . وليقدم الصالحين ، ويعلم العاجزين . يحرصوا على أن يكونوا فضلاء . (حسن شحاتة سعفان، دت، ص786). إذن فالحاكم هنا يحترم الرعية ، ليكون محل احترام من طرف هذه الرعية .

كما أن اقتداء الناس بحكامهم الصالحين ، هو الطريق الأول لتهذيب الناس ، وهو لا يعتقد أن تحلي الحكام بالأخلاق الفاضلة ، هو أساس إصلاح العامة فقط ، بل أساس طاعتهم أيضا، فالناس لا يطيعون إلا من يرون فيه الاستقامة والمحافظة على الآداب العامة . وعلى هذا لا يمكن فهم أن الطاعة تكون بالأحكام الرادعة ، والقوانين الزاجرة ، والأوامر القاسية، إنما الطاعة في نظره ، ما كانت عن رغبة النفس واقتناعها بأن الحق فيما تأمر به وتدعوا إليه ، لذلك رأى بأن قيادة النفس بالآداب والأسوة الحسنة هي التي تتبعها الطاعة، التي لا يحاول فيها الشخص العصيان ، إلا وتأنيب الضمير يرصده .

فهو يقول كما ورد عن حسن شحاتة سعفان :" الرعية إذا قدتها بالأحكام الصارمة والعقوبات الزاجرة ، فتحاول التخلص منها وهي غير مستحية من مخالفتها، وإذا قدتها بالفضائل وأصلحتها بالآداب ، تستحي من ارتكاب الجرائم وهي صالحة . (محمد أبو زهرة، 1991، ص84) وبذلك يكون كونفوشيوس قد خالف المدرسة القانونية ، التي ترى أن القوة لازمة لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم البعض ..(ول ديورانت، 1996، ص60-61) وشدد على ضرورة استعانة الحاكم بالفضيلة في قيادة الشعب .

2. 2. ثقة الرعية بالحاكم أساس الحكم

إن قيادة الحاكم لرعيته بالفضيلة والقدوة الحسنة ، لا بقوة القوانين ، هو الذي سيولد الثقة بين الشعب والإمبراطور .لهذا اعتبر كونفوشيوس أن أول الأسس التي يجب أن يعتمد عليها الحاكم ، هي ثقة الرعية به ونيله محبتها ، فيجب أن يعمل على نية هذه الثقة ، واجتذاب الجماهير لتجد أوامره إجابة من القلوب ، ولا تجد مظهرا من الخضوع . لذلك يوصي الحكام بالعناية بهذه الثقة ، إلى درجة أنه يرى بأن العمل لها ، يكون قبل العمل لقوت الناس أو الإعداد للحروب ، لأنها أساس قوة الحكم ، وهو من غيرها إرهاق وعنت يولد الخوف . (محمد أبو زهرة، 1991، ص85)

ومنه يمكن القول أن طاعة الناس القائمة على الخوف والرهبة ، تقطع الحبل الموصول بين الحاكم والمحكوم ، وينتج عنها اضطراب الأمور ، واهتزاز في الأخلاق ، وفساد في النفوس .لهذا لما سئل كونفوشيوس عن ضرورات السياسة وكما ورد عن ول ديورانت قال : "من ضروريات السياسة : الأقوات الكافية ، وذخائر الحرب ، وثقة الرعية بحكامهم ."فقال التلميذ : فإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأي هذه الثلاثة يجب أن نستغني عنها أولا ؟ فأجاب المعلم : العتاد الحربي . وسأله التلميذ مرة أخرى : وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد الشرطيين الباقيين ، فأيهما يجب الاستغناء عنه ؟ فأجاب المعلم : فلنتخلى عن الطعام ، ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوما عن البشر .

أما إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة . "(محمد فؤاد شبل، دت، ص82) وبالتالي ثقة المحكومين أساس الحكم ، فالواجب الأول على الحاكم لكي يقوم بواجبه الخلقي على الوجه الصحيح ، أن يجتهد في العمل على جلب هذه الثقة .ومما لاشك فيه أن الحاكم لابد أن يأخذ بمبادئ الأخلاق ، كأساس لجلب ثقة الناس إليه والقرب منهم . كذلك ألا يجعل هوة بينه وبينهم ، ولا يتبدل معهم في قول أو عمل ، ويرى أن الشفقة بالناس أساس من أساس الثقة ،وداع من دواعي الإخلاص للحاكم .

2. 3. طريق الحاكم لكسب ثقة الرعية

إذا كانت الثقة بين الإمبراطور وشعبه الأساس الأول للحكم ، وقائمة على الحكم بالفضيلة والقدوة الحسنة .فان حسن اختياره للمناصب أساسه الثاني ، فاختيار الحاكم للرجال الصالحين لتولي تسيير شؤون الدولة ، وإبعاده للرجال الطالحين ، تقوية لهذه الثقة.لهذا عندما سؤل كونفوشيوس عن الكيفية التي تكسب بها الثقة الرعية وكما ورد عن أبو زهرة قال : " إذا أعلى الصالحين و أبعد الطالحين أطاعت الرعية ، وإذا أقصى الصالحين وأدنى الطالحين عصت الرعية ". وفي موضع آخر قال : " لو تداولت أيدي الصالحين شؤون الدولة لمدة قرن واحد ، لتهذب

الظالمون جميعا ، ولاستغنى الحاكم عن الإعدام ". (محمد أبو زهرة، 1991، ص85) فولاية أهل الصلاح في نظره تجذب الناس الى الثقة بالحاكم ، وتساعد الحاكمين على تهذيب الأخلاق ، وتعين الحاكم على تنفيذ مهمته الخلقية .

ومنه اعتبر كونفوشيوس أن الوزراء يمثلون أعلى درجات المسؤولية . وعن هذه العلاقة التي تربط الوزير بالإمبراطور يقول كما ورد عن فؤاد محمد شبل : " على الوزير ألا يخادع الحاكم ، و له أن يعارضه علنا إذا اقتضى الأمر ". وقد أخبر كونفوشيوس حاكم ولاية " لو" ، أنه إذا ساءت تصرفات الحاكم ولم يبدل المحيطون به النصيحة له ، فهذا كفيل بتدمير الدولة. (محمد أبو زهرة، 1991، ص86)

وقد كان كونفوشيوس يرى أن من واجب أهل الصلاح ، أن يتولوا مناصب الدولة ويطلبوها ان كان الحاكم عادلا ، وهو يقول [نقلا عن أبو زهرة] : " امن بالحق ، وأحب العلم، واتبع الفطرة ، ولا تقم في ولاية سادة الفوضى ، واطلب المنصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة حكيمة ، واعتزل إذا كانت تحت سياسة غاشمة ، فمن العار أن تفتقر وتبتعد و البلاد تحت سياسة عادلة ، ومن العار أن تغنى وتعتز والبلاد تحت سياسة غاشمة ."(محمد فؤاد شبل، دت، ص79)

وعليه نرى أن طلب المنصب لازم على من هو أهل له ، لكن من الواجب أيضا أن يعنى الرجل بتأهيل نفسه ، فليس الغرض أن يتولى ليستمتع بسلطان الحكم وجاه المنصب ، بل يطلبه لأنه تكليف إذا توافرت المؤهلات له .فالإخلاص للواجب هو الأمر الذي يجب أن يعنى به صاحب المنصب ، لهذا عندما ذكر أحد التلاميذ لكونفوشيوس ، أن وزيرا من الوزراء تولى رئاسة الوزارة ثلاثة مرات ، فلم يظهر على وجهه إمارة الابتهاج في واحدة منها ، واستقال ثلاثة مرات ، فلم يبدي في واحدة منها على وجهه الاكتئاب ، بل كان يخبر الوزير الجديد ، ما حصل في شؤون الدولة في عهده ، فقال كونفوشيوس [نقلا عن أبو زهرة) : قد كان مخلصا ". (جون كولر، 1995، ص 360)

فالإخلاص بذلك في نظره يجعل طالب المنصب يطلبه لأنه واجب ، من غير أن يفرح لعلو مركزه ، ويتركه لعجزه عن أداء الواجب ، فالمخلص لا يطلب الشهرة ، ولا يشعر عند تركه لمنصبه بمضاضة الحرمان ، بل إن الفضلاء إذا سعوا للمناصب في الحكومة الفاضلة ،فقد سعوا فيما هو حق وواجب . كما أن من الواجب على الصالحين أن يعتزلوا المنصب ، إذا كانت الحكومة غير صالحة ، وعجزوا عن إصلاحها ، لشهوات تمكنت لمن هم أعلى منهم ، وتعذر حملهم على الدرب ،

وقد اعتزل كونفوشيوس نفسه من منصبه الحكومي ، لما رأى أمير مقاطعة "لو" قد استولت عليه الشهوات واستحوذت على بصيرته .

ومجمل ما يقال في هذا السياق ، أن الأخلاق الفاضلة هي عدة الحاكم وعتاده ، وهي المطمح الأسمى ، وهي البذرة الصالحة ، يلقيها الحاكم في أمته ، فتنبت أزكى النبات ، وتثمر أطيب الثمار .وما كان كونفوشيوس إلا نموذجا للحكم الصالح ، حكم فلم يخالف حكمه آراؤه ، ولم يباعد السلطان بينه وبين كلماته .

وهنا نلمس نزعة عملية واقعية في فلسفة كونفوشيوس ، فهو دائما يدعوا إلى الإصلاح ما استطاع ، على أساس أخلاقي متين ، ومن أجل تحقيق المنفعة العامة للجميع .

3. أنواع الحكومات

3. 1. الحكومة الصالحة

السعادة عند كونفوشيوس ، هدف الإنسان و أمله المرتجى . ولهذا؛ يعرف الحكومة الصالحة بأنها التي تكفل السعادة للشعب . وإذا كانت السعادة هي الخير ، ويعد الإنسان –عادة- كائنا اجتماعيا ؛ يعتنق كونفوشيوس مبدأ ، " تبادل المعاملة " ، ويعرف بأنه " امتناع الفرد عن إتيان فعل يكره توجيه الغير إياه إلى ذاته ". فواضح أن بذل الإنسان جهوده لكفالة السعادة للجميع ، يقود إلى شمول السعادة للمجتمع بأسره . (جون كولر، 1995، ص 360) وهذه السعادة التي يصلها المجتمع ، تكون في إطار الحكم بالفضيلة ، حيث أن الحكومة الصالحة يكون الحكم فيها عن طريق الفضيلة ، والتي هي حب الناس وتحقيق الخير.

لكن من سيادة هذا الحكم أنه تنتشر فيه مجموعة من العناصر الأخلاقية السياسية ، باعتبارها وسائل لتحقيق العظمة ، والتي نذكر منها على سبيل المثال : رعاية الحياة الشخصية ، ورعاية الحياة العائلية ، وتنظيم الحياة الوطنية . (محمد فؤاد شبل، دت، ص74)

وعلى ضوء هذه الوسائل يرى كونفوشيوس أنه وبالانطلاق من الإرادة المخلصة ، وعن طريق تمحيص الأشياء وبلوغ المعرفة الحقة ، يمكن الوصول إلى رعاية الحياة الشخصية والتي بالضرورة ينتج عنها رعاية الحياة العائلية ، وإذا قمنا برعاية حياتنا الشخصية وحياتنا العائلية، وصلنا في الأخير إلى تنظيم الحياة الوطنية من خلال الوفرة المادية والروحية ، وعلى هذه الوتيرة يسود السلام في كافة أنحاء العالم . (عبد الجليل شلبي، 1991، ص85)

والحكومة الصالحة أساس قيام كيان الدولة السعيدة المستقلة الوحيدة المتماسكة ، والتي تتحاشى بقدر الإمكان كل تعقيد وتشابك ، أنها تحد من الرفاهية بين حكامها ، ثم إنها تعنى

بسن قوانين العقوبة ، وأن تزيد من الثقافة . (ول ديورانت، 1996، ص61) وبالتالي تلعب هذه الحكومة العادلة دورا كبيرا في إرساء قواعد هذه الدولة السعيدة ، وذلك عندما يكون الحاكم هو الحاكم ، والوزير هو الوزير ، والابن هو الابن ، والوالد هو الوالد. (محمد فؤاد شبل، دت، ص79)

وللحكومة الصالحة أيضا حاكم صالح نيته فعل الخير ، حيث قال كونفوشيوس في هذا الصدد كما ورد عن ويل ديورانت ، عندما سأله كي كانج عن الحكومة : "ما قولك في قتل من لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر؟ "فأجابه كونفوشيوس : وما حجتك يا سيدي الى القتل في قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس أخيارا....." (ول ديورانت، 1996، ص63)

لكن على الرغم من فعل الخير لكل الناس ، وتحقيق سعادتهم انطلاقا من رؤية من حولهم هانئين ، في إطار الحكومة الصالحة . فان هناك من يتصرف بعناد ، إذ يؤثر لذة عاجلة أقل على أخرى آجلة أعظم ، من ذلك هناك أن هناك من يضمن سعادته الخاصة ، على أنقاض سعادة الآخرين ، وفي هذه الحالة بالذات يتضح دور الحكومة الصالحة ، من خلال عملية تثقيف الناس وبث روح التضامن في نفوسهم ، وتوفير درجة من التعليم العام . (بطرس غالي، 1972، ص24)

هذا العمل الكبير الذي يحدث في نطاق الحكومة الصالحة ، له هدف أسمى هو إعادة إدراج هذا الفرد إطار الحكومة ، والعمل على نشر آداب اللياقة بين الناس ، هذه اللياقة تكون من الجهة السياسية ، بمثابة حواجز بين الناس وبين الانغماس في المفاسد ، ومن يظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدمها ، حلت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة. (محمد فؤاد شبل، دت، ص80)

ولكن ما يمكن قوله في الأخير ، أن كونفوشيوس وفي تأكيده على ضرورة قيام الحكومة الصالحة ، أذكر في المقابل على الدولة حق التحكم المطلق في ولاءات مواطنيها ، فالإنسان يحتفظ بمسؤوليته الخاصة في أن يحكم على الدولة ، وأن يحدد لنفسه متى تستحق هذه الدولة خدماته . وانطلاقا من هذا التصور للإدارة والحكم في الدولة المثالية ، كان كونفوشيوس عدوا للحكم المطلق ، وقد وجدت في كتاباته عموما أفكارا سياسية تتصف بالأصالة في روحها الديمقراطية . (أحمد عبد الغفور عطار، 1981، ص149)

3. 2. الحكومة الفاسدة

لقد عبر كونفوشيوس عن فساد الحكومة بفساد الحكم . وذلك من خلال عزوف القائمين عليها من إقامة حكومة صالحة ، سواء لسوء نيتهم –لأنانيتهم وجهلهم – أو لقصور مؤهلاتهم .

ومناط هذا كله تولي الحكام مناصبهم بالوراثة . ويبني على هذا ؛ ضرورة أن يدير دفة الحكم أكفأ عناصر الأمة علما وخلقا ، ويضع هذا الشرط لتحقيق سعادة المجتمع وهناءته . (ول ديورانت، 1996، ص45)

ولعل أصدق وأهم دليل على وجود تلك الحكومة الفاسدة في الصين في عصر كونفوشيوس ، تلك الأوضاع المزرية التي مرت بها ولاية – لو – حيث كانت مضطربة وممزقة الأوصال ، وذلك لما قام فيها من شقاق وفساد للحكومة والحكام ، هذه الأسباب هي التي جعلت في نفس كونفوشيوس رغبة ملحة في مغادرة ولايته الأصلية غلى ولاية "تشي " ، وفي طريقه إلى هذه الولاية أدرك خطر الحكومة الفاسدة على الشعب والأفراد ، وذلك من خلال الموقف الذي تعرض له رفقة تلاميذه . (محمد فؤاد شبل، دت، ص80)

حيث أنهم وجدوا عجوزا تبكي بجوار أحد القبور ، فأرسل كونفوشيوس "تسه- لو " (أحد تلاميذه) يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته (نقلا عن ول ديورانت) : " إن والد زوجي قد فتك به نمر في هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجي ، وهاهو ولدي قد لقي المصير نفسه " ، ولما سألها عن سبب إصرارها على الإقامة في هذا المكان الخطر ، أجابته : " ليس في هذا المكان حكومة ظالمة " ، فالتفت كونفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : " أي أبنائي أذكروا قولها هذا ، إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر " . (بطرس غالي، 1972، ص26)

إذن من هذه الحادثة يتضح لنا مدى وحشية الحكومة الظالمة الفاسدة وخطرها على الأفراد ، هذه الحكومة يعتبر الحكم الوراثي فيها السبب الرئيسي لظهورها ، ولكن على الرغم من كل هذا نجد كونفوشيوس قد عزف غاية العزوف ، عن مطالبة الحكام الوراثيين بالتخلي عن عروشهم ، وفي الواقع لو كان قد طالب بذلك صيحته مجيبا ، ولما اخذ الحكام بتعاليمه ، وهذا ما دفعه لبذل الجهود لا قناع الحكام الوراثيين ، أن يملكوا ولا يحكموا ، ويتم هذا بأن يتركوا أمور الإدارة للوزراء . (ول ديورانت، 1996، ص60)

4.المحكوم (الشعب)

إن الدولة ترتكز أساسا على مجموعة من المقومات ، هذه الأخيرة هي التي تعطي لها الصيغة الشرعية والقانونية ، ولعل أهم هذه المقومات الشعب . فالدولة في اعتقاد كونفوشيوس توجد فقط لرفاهية الشعب ، وأن الشعب في الواقع هو جذر الدولة ، وأنه بمقارنته مع الحاكم ، يصبح هذا الأخير فرع غير هام نسبيا للدولة ، وليست هناك مصلحة للحاكم أو الدولة ، يمكن أن

يكون لها الأسبقية على الحاجة لتحقيق رفاهية الشعب الأساسية . (حسن شحاتة سعفان، دت، ص788)

ومن هنا تظهر لنا الأهمية البالغة للشعب ، في بناء الدولة والحكومة ، انطلاقا من ممارسة سيادته واستغلال ثرواته . (رالف لينتون، 1961، ص263)

4. 1.سيادة الشعب

إن الشعب هو المصدر الفعلي للسلطة السياسية، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة، عاجلا كان ذلك أو آجلا. (الشهرستاني، 1968، ص25) وبالتالي ما على الإمبراطور أو الحاكم إلا أن يستمع إلى نصيحة الشعب،لأن ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئا آخر، غير ما يراه الشعب و يسمعه،وما تعتبره السماء جديرا بالثواب والعقاب،فهناك إذا اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب. وعلى من يدبرون شؤون الشعب، أن يراعوا ذلك ويتدبرونه. وعليه يمكن القول أن صوت الشعب من صوت الله، وأن الحكم تفويض من الله، فالحاكم خليفة استخلفه الله على الأرض ، وهذا التفويض ليس أبديا .(ول ديورانت، 1996، ص64)

وفي حالة ما إذا قصر الحاكم في أداء واجبه ، أصبح لا من حق الرعية بل من واجبها أن تنحيه من عمله ، وأن تبحث عن شخص آخر ليجلس على العرش الإمبراطوري . ولما كانت رفاهية الإمبراطورية تعتمد على رضا السماء ، فان فشل الإمبراطور في أداء واجباته ، ينتج عنه سلسلة من المصائب التي تلحق بالناس ، وعلى العكس من ذلك فان حق من خلفه في تولي الوظيفة ، يظهر في إعادة النظام والرخاء . (ول ديورانت، 1996، ص62)

وما يمكن قوله في الأخير عن تنحية الحاكم من طرف الشعب ، أنه إن دل إنما يدل على الديمقراطية السياسية التي نادى بها كونفوشيوس .

4. 2. استغلال الثروة :

لقد سبق وأن قلنا أن صلاح الفرد من صلاح المجتمع ، وأن العلاقة التي تربط بين الأفراد هي علاقة حب وتعاون ، وعلى هذا الأساس نبه كونفوشيوس إلى أن هذه العلاقة لن تستقيم ولن تتوطد ، إلا إذا تم احترام حق الملكية ، وهو لم يفرق بين العدل واحترام الملكية ، إذ يعتبر كلا منهما مرادفا للآخر ، وكان أبشع الجرائم عنده ، أن يتعدى شخص على ملكية الأخر. (حسن شحاتة سعفان، دت، ص783)

وقد رد كونفوشيوس سبب إنتاج الناس للثروة وبنائهم للملكية ، إلى كرههم أن تبدد وتضيع هذه الثروة في الأرض ، ولكنهم يكرهون أيضا أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم

يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون في عملهم ، إلى منفعتهم الشخصية ، وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الشخصية ، فلا تجد سبيلا للظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المارقين . فتبقى الأبواب الخارجية مفتوحة وغير مغلقة . (بطرس غالي، 1972، ص25)

وعلى ضوء هذا الكلام نستنتج أن أمن الشعب ، تحقيق يصنعه الشعب نفسه ، وهذا بأن يستغل ثرواته ولا يعطلها ن ويوجهها توجيها نفعيا لما فيه الصالح العام . ولهذا لا يقف كونفوشيوس عند هذا الحد من ضرورة استغلال الثروة ، بل يذهب بعيدا من هذا ، حيث يرى أن استغلال الشعب لثروته هو حماية لنفسه ، لأن الحاجة إلى الغير في قوت اليوم ، سيجعل الأمة تشن الحرب على غيرها من الأمم للحصول على غلتها . ولكي تمنع مثل هذه الكوارث ، رأى كونفوشيوس ضرورة توزيع الحكومة للثروات توزيعا عادلا ، فهو الكفيل لتحقيق وحدة الشعب. (ول ديورانت، 1996، ص62)

ونلخص في الأخير أن كونفوشيوس كان استراتيجيا في دعوته إلى استغلال الثروة ، وربطها بالأمن الغذائي والوطني . كما أنه كان حريصا على وحدة شعبه ، من خلال احترام حق الملكية ، والعدالة في توزيع الثروات .

4. 3. التقسيم الطبقي للمجتمع :

لقد تطرقنا في المبحث الخاص بالرجل الماجد ، أن الإنسان يكون فاضلا لا لأنه من طبقة النبلاء ، وإنما هو فاضل لأنه يملك أخلاق فاضلة ، إذن معيار الرجل الفاضل أخلاقه .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر المجتمع الطبقي عند كونفوشيوس ، فهو يريد مجتمعا يوضع فيه كل إنسان ، في الطبقة التي تؤهله لها كفايته ، فالناس مختلفون ، فمنهم الغبي والذكي ومنهم حسن الخلق وسيئه ، ويقضي العدل الكونفوشي أن لا يكون الناس في منزلة واحدة . فالقانون الأخلاقي يلزمنا أن نضع كل إنسان ، في مكانته وكفايته وأخلاقه ، لأن الله إذا وهب الحياة لمخلوقاته ، لاشك أنه وهبها من النعيم ما يتناسب مع صفاتها . (مصطفى النشادر، 1997، ص85)

لكن طبقات كونفوشيوس ليست طبقات مقفلة على أصحابها ، بل هي طبقات مفتوحة، يستطيع كل إنسان أن يصل إليها مادامت أخلاقه تؤهله إلى ذلك ، أي إمكانية الانتقال من طبقة اجتماعية إلى أخرى ، أي هناك نظام طبقي غير جامد. (حسن شحاتة سعفان، دت، ص789)

وبهذا يكون كونفوشيوس قد نظر إلى الفرد ، على أساس قيمته وليس على أساس الميلاد وحده ، فليس من ولد نبيلا يبقى نبيلا إلى الأبد ، بل أخلاقه هي التي تحدد ذلك ، وليس من يولج

فقيرا يبقى فقيرا ، بل أخلاقه هي التي تحدد ذلك ، إذن فالرفعة هنا والدنو أو النبل و الخساسة ، يحددها الخلق أي خلق الفرد وليس شيئا آخر .

إذن طبقاته الاجتماعية ليست مقفلة ، كالطبقات الحرفية في الهند ، أو كنظام الإقطاع الذي ساد أوروبا في العصور الوسطى ، أو غيرها من الطبقات المقفلة . (بطرس غالي، 1972، ص25) وعلى هذا الأساس نجد كونفوشيوس ، رغم أنه كان ارستقراطيا ، إلا أنه قبل طلبة من جميع الطبقات الاجتماعية . (ول ديورانت، 1996، ص62) وذلك بأن التعليم كفيل بأن يعدم الفروق بين الطبقات . (مصطفى النشادر، 1997، ص85)

وهنا نلمس نزعة إنسانية عند كونفوشيوس . تدل على أن المواطن داخل الدولة ، تحدد مكانته من خلال أخلاقه ، وليس من عراقة أسرته . هذه الرؤية ما هي إلا تعبير عن روح فيلسوف حكيم ، تنبذ البغض والظلم ، وتنشد الخير والحب ليعم الناس جميعا .

5.أثر كونفوشيوس في السياسة

إن الحديث عن الأثر الذي تركه كونفوشيوس في الجانب السياسي ، يقودنا حتما إلى الحديث عن مدى نجاعة أفكاره السياسية وتأثيرها ، وهذا في فترة حياته من جهة ، وتطبيقاتها من جهة ثانية .فأثناء فترة حياته ، أقام كونفوشيوس تصوره للدولة أو الحكومة المثالية على أرض الواقع ، حينما تولى منصب كبير الوزراء في ولاية " لو " ، فقد طبق تلك المبادئ التي امن بها ، ولم تمض فترة طويلة على توليه الوزارة ، حتى أصبحت ولاية .لو.نموذجا للولايات ذات التنظيم المثالي ، فاختفى اللصوص وزالت السرقات ، وأصبح التجار يبيعون تجارتهم بأمانة و نزاهة ن كما أصبحت " لو " كعبة الزائرين من السياح الأجانب و أهل الولايات الأخرى ، الذين أصبحوا يعتبرونها كوطنهم الأصلي(ول ديورانت، 1996، ص64)

وبالتالي يعتبر كونفوشيوس أكثر حظا من الفلاسفة المثاليين حيث استطاع تطبيق حكومته المثالية على أرض الواقع ، وبالضبط في مسقط رأسه ولاية " لو " . أما فيما يخص الفترة الثانية، أي بعد وفاته ، كان نجاحه كاملا ، لقد كان يضرب في فلسفته على نغمة سياسية عملية حببها إلى قلوب الصينيين ، وإذا كان رجال الأدب في كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فان أدباء القرون التي أعقبت موت كونفوشيوس ، استمسكوا أشد الاستمساك بمبادئه ، واتخذوها سبلا إلى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجد طبقة من العلماء الكونفوشيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية أجمعها . (محمد فؤاد شبل، دت، ص85) كما أن الدولة

أعلنت إبان القرن الثاني قبل الميلاد الكونفوشية عقيدة رسمية للأمة ، وجعلت المأثورات الكونفوشية المراجع الوحيدة للعلماء و السياسيين . (ول ديورانت، 1996، ص65)

وفي مقابل هذا كانت طائفة في البلاط هي طائفة القانونيين ، استطاعت أن تناهض أراء كونفوشيوس في عالم السياسة ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها في بعض الأحيان ، ومن أقوالها في الرد على أراء كونفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذي تنطوي عليه قلوب المحكومين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار . وبالتالي فهم يردون الحكم إلى القوانين لا إلى الحكام(رالف لينتون،1961، ص39) وهذا النقد الذي أتت به المدرسة القانونية ، إن دل إنما يدل عن ذلك التأثير الذي خلفته أفكار كونفوشيوس في نفسية هؤلاء القانونيين .

ولكن على الرغم من هذه المعارضة للقانونيين ، انتشرت المدارس الكونفوشية في جميع أنحاء البلاد لتعلم للناس فلسفة كونفوشيوس ، وبفضل هذه المدارس ظلت تعاليمه وكتبه نبراسا لغالبية الطبقة المتعلمة في الصين خلال القرون الطويلة ، وكانت الإحاطة بها هي الطريق الأوحد للوصول إلى الوظائف العامة في الدولة ، إذ أن الحكومة الصينية لم تلغ الامتحان في كتب كونفوشيوس عند التقدم للوظائف ، إلا في عام 1905 . (رالف لينتون، 1961، ص43)

وعلى ضوء هذا تتضح لنا الأهمية البالغة لهذا المفكر الصيني ، التي لم تتوقف عند هذا الحد فقط بل تعدتها إلى أبعد من ذلك . حيث أن القرابين التي كانت تقدم إلى لكونفوشيوس خلال جميع القرون الماضية حتى عام 1907 ، كانت معتبرة في مراسيم الطقوس الصينية قرابين من الدرجة الثانية ، ولم ترتفع إلى الدرجة الأولى إلا في ذلك العام فقط ، رفعتها إمبراطورة الصين للرد على ما بدأ يتسرب بين المتعلمين الصينيين ، من أراء غريبة ، ومن ميل إلى ترك تقاليدهم القديمة ، واتباع مدينة الغرب . (رالف لينتون، 1961، ص40)

كما أنه لم تكن العودة إلى احترام كونفوشيوس مقصورة على فريق من الصينيين دون فريق ، بل إن كبار زعماء الشيوعيين أنفسهم ، الذي كان يتوقع الغربيون منهم محاربة أراء كونفوشيوس وغيرها من التراث الصيني القديم ، اخذوا يحرصون على الإشادة بها ، وهاهو الرئيس " ماو تسي تونغ" يقول كما ورد عن[أحمد فخري ، في مجلة المجلة] : " يجب أن تكون خلاصة لجميع الآراء منذ كونفوشيوس حتى سان يات سان * ونرث ذلك التراث الثمين " .(محمد فؤاد شبل، دت، ص96)

وخلاصة القول إن كونفوشيوس كان موضع إجلال واحترام الصينيين لألفين من السنين ، وان كان إخلاص أتباعه له قد جعلهم يخلعون عليه شرف النجاح العالمي واعتبارها رجل دبلوماسي حتى وحدوه ونادوا به .

6. أثره في الكونفوشيين الأوائل :

إن التعاليم السياسية و الأخلاقية الكونفوشية لم تمت بموت كونفوشيوس ، بل تواصلت مع مريديه الذين عملوا على نشرها والمضي بها بعيدا ، ونخص بالذكر هنا " منشيوس " و " هسون تسو " ، هذين الأخيرين الذين تجلت فيهما تلك الآثار التي خلفها فيهما معلمهما كونفوشيوس .

6. 1. منشيوس (المعلم الثاني) :

لقد آمن منشيوس بأنه حامل رسالة كونفوشيوس في عصره ، وأن معتقداته وأراءه وأفعاله تنسجم تماما عن ما أوثر عن المعلم العظيم . (بطرس غالي، 1972، ص26) وبذلك يكون منشيوس تالي كونفوشيوس من حيث الأهمية ، حيث يظهر أثر كونفوشيوس في هذه الشخصية، عند الحديث عن النظام الذي رتب به كونفوشيوس المسؤوليات الأساسية للحكومة ، لجعل واجبها أولا أن تنهض بأعباء رفاهية الإنسان المادية ، وثانيا أن يتعلم الإنسان مراعاة أخلاقيات الأسرة والمجتمع ، ويفسر هذا بما اعتقده منشيوس من أن الأفراد الجوعى لا يمارسون الفضيلة. (أرلوند توينبي، 1977، ص220) كما شدد منشيوس على فضيلة الإنسانية كما علمها كونفوشيوس . (بطرس غالي، 1972، ص26)

كما عارض كأستاذه المبادئ العسكرية بشدة ، وكرس كتاباته بصفة أساسية لمهاجمة شرور الحروب ، وقد أكد منشيوس على أن القواعد الخلقية التي تنطبق على العلاقات بين الأفراد، تنطبق على العلاقات بين الأمم ، وكانت تعاليمه تقضي بأن الاختلاف بين الأمم يجب أن تسوى بالتحكيم ، وفقا لاعتبارات العدالة وليس بالقوة والعنف . (محمد عبد الرحمن مرحبا، دت، ص121)

وبذلك كان منشيوس فيلسوف أخلاق ، أكثر منه في المنطق أو المعرفة أو ما بعد الطبيعة ، فالبحوث الأخلاقية وسياسة الحكم أولا عنده من كل ذلك ، حيث كان أكبر همه أن يرسم منهجا للحياة الصالحة ، وكيف يتولى خيار الناس مقاليد الحكم . (محمد فؤاد شبل، دت، ص96) وبالتالي يكون قد حدا حد و أستاذه كونفوشيوس ، في اهتمامه بالأخلاق والسياسة كأساسين لبناء المجتمع .

6. 2. هسون تسو :

هو العضو الثالث في ثالوث الآباء المؤسسين للكونفوشية، حيث يبدي هذا الأخير تقديرا عميقا لمعلم الصين الأول كونفوشيوس ، ويعد تعاليمه ذروة الكمال وتتمة الصفاء الذهني ، و أنها لم تترك شأنا من شؤون الحياة إلا بحثته ومصته. (أرلوند توينبي، 1977، ص220) وقد شدد هسون تسو على اهتمام كونفوشيوس بموجب الحفاظ على الطقس التقليدي.(جفري بارندار، دت، ص329)

وبالتالي نجد أن هسون تسو رجع إلى أسلافه القدماء ، مفضلا عصر ملوك أسرة تشو المبكرين ، على أنه أفضل

العصور ، مقتربا من ذلك من أستاذه كونفوشيوس . وقد كونفوشية هسون تسو أقل من غيرها تعاليا ، و أكثر تركيزا على الجانب الإنساني . فقد بدأ من مقدمة قاسية أن البشر ولدوا شريرين ، لكنه في الوقت نفسه يؤكد بقوة على اعتماد بأنه في استطاعتهم أن يصبحوا أخيار بالتربية والتهذيب الأخلاقي . (محمد فؤاد شبل، دت، ص139)

كما نجد كذلك تسو أكثر صراحة من كونفوشيوس في مهاجمته الامتيازات الموروثة ، حيث امن بأن الدراسة هي الباب الطلق المفتوح ، الذي في وسع الإنسان أن يلجه ، وأن نبذل قصارى جهدنا ليتحول الوضيع (إن حرم من اللقب الرفيع) إلى نبيل ، والجاهل إلى عالم (وان لم يحصل على منصب مرموق) ، والفقير الى غني (وان لم يحض بالجاه والثراء) . (جفري بارندار، دت، ص359)

7. أثره في الكونفوشية الجديدة :

لم تفقد الكونفوشية الجديدة أبدا سيطرتها على المثقفين و أهل الفكر ، وبقيت شرعيتها بالنسبة للمثقف يمثل جوهر الثقافة الصينية ، كما استمرت دراسة الكلاسيكيات الكونفوشية . (ول ديورانت، 1966، ص66) ففي عهد أسرة " دونغ " نشأت مدرسة قوية للمدرسة الكونفوشية الجديدة ، أضافت شروحا وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكونفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر كونفوشيوس ، وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى . (Chow yih ,p33) وذلك انطلاقا من نقدها للبوذية و التاوية ، حيث نظرت للتاوية أنها ديانة أجنبية و اعتبرتها غير وطنية . (جفري بارندار، دت، ص360) ومن ثم شرع فلاسفتها بصفة

عامة في استخراج كلا منظما من الكونفوشية ، دارت أفكارها حول الجنس البشري ، و أبرز من مثلها نجد :

7. 1. شاو يونغ (1011- 1077)

كان له الأثر الكبير في تطوير الجانب المثالي للكونفوشية . رفض جميع المناصب الحكومية مفضلا الاعتزال ، كما قام بتطوير نظرياتها على النحو الرياضي ، عندما ذهب إلى أن الأعداد هي أساس الوجود كله .

7. 2. الأخوان شنج (شنج هاو 1032 – 1085 ، شنج آي 1033 – 1107) :

فلسفتهما تكاد تكون واحدة ، حيث الأول أثر في الجانب المثالي من الكونفوشية الجديدة، في حين كان للثاني أثر في تطوير مدرسة عظيمة ، تلخصها حكمته الشهيرة : " المبدأ واحد لكن تجلياته عديدة " . (جفري بارندار، دت، ص361) ولكن ما يمكن قوله أن هؤلاء الفلاسفة الكونفوشيين الجدد ، هم أبرز من مثل الكونفوشية الجديدة ، الذين لم ينقطعوا عن العودة إلى التراث الكونفوشي القديم ، ليضفوا عليه صبغة جديدة وقراءة جديدة ، بلورتها الأحداث المتعاقبة في المجتمع الصيني .

وفي الأخير يمكن القول إنه بالرغم من صعوبة تلخيص الكونفوشية الجديدة ، لكن يمكننا تلخيصها في أنها تذهب إلى القول في أن العقل البشري ملكة للمعرفة . كما يوجد في أي شيء مبرر وجوده . ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شيء ، ولابد للطالب أن يذهب إلى جميع الأشياء الموجودة تحت قبة السماء، بادئا من المبادئ المعروفة وساعيا للوصول إلى أسمى المبادئ ، وبعد بذل الجهد الكافي ، يأتي الذي يصبح فيه كل شيء واضحا و مفهوما .